وحدة الدين والتعدّدية الدينية والأزمنة الحديثة

رضوان السيد

أولاً: الوحدة والتعددية في القرآن الكريم

أ ـ وحدة الدين:

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].
- ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: 46، 47].
- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

أستاذ الدراسات الإسلامية، ومستشار تحرير مجلة التفاهم.

- ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمـران: 65] ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

ب ـ التعددية الدينية:

- ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 48].
- ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: 213].
- ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: 118، 119].

بحسب منطوق القرآن إذن فإنّ الدين واحد في عقائده الرئيسة التي تعني الإيمانَ بالوحدانية، والإيمانَ بالكتب والرسل، وأداء العبادة لله وحده، والإيمانَ باليوم الآخِر، يوم الحساب بالمثوبة والعقاب؛ استناداً إلى سلامة الاعتقاد والعمل الصالح.

ولو تأمَّلْنا «نَسَب» الدين الواحد ـ إذا صحَّ التعبير ـ لوجدناه يعود إلى نوحٍ عليه السلام تدليلاً على العراقة والقِدَم، وكأنّ الأُمةَ الواحدةَ التي تحدّث عنها القرآن إنما دبَّ الخلاف (الديني) بين صفوفها زمنَ نوحٍ، فكانت تلك السلسلة من الأنبياء الهُداة ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويعيدوهم إلى عقيدة الوحدانية. ثم إنّ النَسَب الأقرب لدين التوحيد يعودُ إلى

إبراهيم عليه السلام. والقرآن يخاطب «أهل الكتاب» الذين ينتسبون إلى إبراهيم بوصفهم شركاءَ المسلمين في الدين؛ لانتسابهم في العقائد الرئيسة إلى إبراهيم، ولذلك يقول مخاطباً رسول الله ﷺ والمسلمين أن يقولوا لهم للتوافق والتوفيق، والكلمة السواء: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٌ﴾ [العنكبوت: 46]. وقد جادل أهل الكتاب الرسول ﷺ في أمرين: الانتساب إلى إبراهيم، والاحتكام إلى شرع الله. ولذلك فقد أجابهم: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..﴾ [آل عمران: 68]. فالمسألة ليست مسألة نَسَبٍ قرابي، بل هو انتسابٌ للدعوة، فكلُّ مَنْ آمن بدعوة إبراهيم وما تتضمنه هو إبراهيمي.

بحسب منطوق القرآن فإنّ الدين واحد في عقائده الرئيسة التي تعني الإيمانَ بالوحدانية، والإيمانَ بالكتب والرسل، وأداء العبادة لله وحده، والإيمانَ باليوم الآخِر، يوم الحساب بالمثوبة والعقاب.

والمعروف أنّ المسيحيين يقولون بالنَسَب الروحي إلى إبراهيم مثل النبي ﷺ والمسلمين؛ في حين يصرُّ اليهود على الانتساب القرابي بوصفهم أعقاب إبراهيم وأُمة الله دون الخَلْق. أما الأمر الثاني ـ أي اتباع شرع الله ـ فقد أوضح القرآن الكريم أنّ لكلٍ من أهل الكتب شرعةً ومنهاجاً بتقدير الله ومشيئته؛ لأنّ الناس لن يعودوا أُمةً واحدةً ذات شِرعةٍ واحدة. وكلٌّ من هؤلاء مكلَّفٌ باتباع شرع الله الذي أُنزل على النبي من بني قومه. ففي سورة المائدة (44 ـ 47) آياتٌ في أنّ التوراة هدىً ونور، وكذلك الإنجيل. وهو يطلب من اليهود والنصارى أن يتبع كلٌّ منهم ما أُنزل إليه، ولو فعلوا ذلك حقاً لما كان بينهم وبين دعوة النبي ﷺ خلافٌ في الدين، بل اختلافٌ في الشرائع فقط. ولذلك فإنه في الآية (48) من سورة المائدة يؤمَرُ أتباع النبي باتّباع ما أُنزل إليهم (في القرآن) من شعائر وشرائع، كما يأمر النبي ﷺ إذا سأله أهل الكتاب من اليهود والنصارى (جدلاً واستفزازاً) أن يحكم بينهم فليكن بشرائعهم التي جاء مصدّقاً بها. وفي ذلك اعترافٌ من جانب النبي ﷺ بالشِرعتين الإبراهيميتين الأُخريين، وتأكيد من جانبه أنهم إن اتّبعوا شرائعهم فلن يكون هناك خلافٌ في الدين الواحد أو على الدين

الواحد. وهذا قولٌ بالتعدديــة الدينية إذا صحَّ التعبير، وهي تعدديةٌ يمكن أن تتّسع لغير اليهود والنصارى (تأسيساً على أنّ النَسَب الدينيَّ اعتقاديٌّ وروحيٌّ وليس قرابيــاً): ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائـدة: 69]. فهـل الصابئون هنا هم أهل دين معين؟ اختلف في ذلك المفسِّرون؛ بَيْدَ أنّ الراجح أنّ المقصود، كلُّ مــن آمن بالله واليــوم الآخر من غير أهل الكتاب وســلك مســلكاً صالحاً ورشــيداً في مجتمعه، وتجاه الديانات والمجتمعات الأُخرى، يمكن له أن يكونَ من أهل «الكلمة السواء» ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 64]. وفي روايات كتب السُّــنَّة والتاريخ أنّ النبي ﷺ في آخِرِ حياته أَلحق «مجوسَ» هَجَر بالأقوام الذين اعترف بهم الإسلام، فأقرّهم على ما هم عليه، وما عاملهم معاملة مشــركي العــرب، وأخذ منهم الجزية، لكنه نهى عــن أكل ذبائحهم والتزوج من نســائهم[1]. لكنْ فــي روايةٍ منفردةٍ أنه ﷺ قال لأُمراء جيوشــه: سُــنُّوا بهم سُــنَّة أهل الكتاب. أي أنهم إن قبلوا سلطة المسلمين وأدّوا الجزية، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

إنّ منطق القرآن إذن أن الإسلام هو دينُ فكرةٍ ودعوة. وأنه يعدّ نفسَه ديانةً إبراهيمية، ولذلك سعى للتوادّ مع «أهل الكتاب» (أي اليهود والنصارى) بالنظر إلى الشراكة في أصل الدين. على أنّ هذا المنطق الديني شاسع الجنبات؛ لأنه يريــد أن يكون (في أصوله، أصــول الفطرة) ديناً للناس جميعــاً. وليس المعنيُّ بدين النــاس الموافقة على الدعــوة المحمدية بحذافيرهــا ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: 256]، و﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشـية: 21، 22]، بل بالإيمــان والعمل الصالح. وهما الصِلــةُ الوثيقةُ مع أهل الكتــاب، لأنه لقاءٌ في أصل الدين. أما مع سائر البشر فهو **التعارف**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجـرات: 13]. إنها مقتضى التعارُف. فالأكثر رُشــداً هو الأقربُ إلى الكلمة الســواء التي يدعو إليها القرآن. ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: الناس صنفان: أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق.

1 ـ كتاب الأموال لأبي عبيد. تحقيق هراس. ص 112 ـ 113.

وإذا كنا نمتلك في معاني الوحدة والتعدد في الدين نصوصاً قرآنية؛ فإننا نمتلكُ في التجربة السياسية للتعددية الدينية والإثنية أو القبلية تجربة النبي ﷺ في المدينة؛ فهو عليه الصلاةُ والسلام لم يُشْرف على إقامة كيانٍ واحدٍ فيه تعددية دينيةٌ وقَبَلية فقط؛ بل كتب في ذلك صحيفةً أو كتاباً أو دستوراً تنظيمياً عُرف باسم صحيفة المدينة أو عهدِها. وهو كتابٌ «بين قريش وأهل يثرب وَمَنْ لحق بهم وجاهد معهم أنهم أُمةٌ واحدةٌ من دون الناس». ثم جاء في الكتاب أنّ «اليهود أُمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينُهم». وقد اختلفت التفسيرات لمعنى كون اليهود **أُمةً** مع المؤمنين، ولا داعيَ للاختلاف. فالأُمة تعني هنا الجماعة التي يجمعها دينٌ واحدٌ، وكذلك كان شأن اليهود، ولذلك فسّر الكتاب الأمة مباشرةً بالقول: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. أما كونُهم «مع المؤمنين» فهو أنه يجمعهم كيانٌ سياسيٌّ واحد لهم فيه حقوقٌ وعليهم واجباتٌ والتزامات، ومن حقوقهم الاستقلال بدينهم، والمشاركة في الإدارة (وقد فصّلها الكتاب) بمقتضى الدار الواحدة أو الكيان الواحد. وهنا نعود إلى القرآن الذي اشترع لهذا التعارُف في الدين والعيش. وقد شاعت في العقود الأخيرة تفسيرات التعارُف بالاعتراف، والاعتراف حاصلٌ بهذا العيش المشترك؛ لكنّ **التعارُف** يظلُّ أعلى وأرفع منه؛ لأنه لا يشترع للكيان الواحد المتعدد العقائد والفئات؛ بل يشترع للمسلمين رؤيةً أُخرى للعلاقات مع العالم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8]. إنّ التعارُف هو تعامُلٌ مع سائر البشر بالبر والقسط، والقسط هو المعدلةُ والتكافؤ، أما البرُّ فهو تفضُّلٌ بالخلق الحسن وبالمبادرة إلى الودّ وصُنْع المعروف. فإذا قوتل المسلمون في دينهم أو أرضهم يكونُ من حقِّهم الدفاعُ عن أنفُسهم، كما هو شأنُ سائر البشر. وبنية الآية وتركيبتُها تشيران إلى أنّ الدفاع عن الدين والأرض هو استثناءٌ، والقاعدةُ هي القِسْطُ والبِرّ.

> **إذا كنا نمتلك في معاني الوحدة والتعدد في الدين نصوصاً قرآنية؛ فإننا نمتلكُ في التجربة السياسية للتعددية الدينية والإثنية أو القبلية تجربة النبي ﷺ في المدينة.**

هل هذا تصوُّرٌ مثالي؟ لا ليس كذلك؛ فالله سبحانه وتعالى لا يكلِّفُ البشر إلّا بما يُطاق؛ أي ما يمكنُ أداؤهُ والقيامُ به والإقبال عليه بالعزيمة والإرادة. ولذلك عندما وقف النبي ﷺ على عرفة في حجة الوداع، وبعد أن حرَّم الولوغ في الدماء والأموال، وأمر بالعناية بالنساء، وبشّر المسلمين أنّ الشِركَ الشيطاني لن يعودَ إلى أرضهم من بعد، عاد للقول: **ألا هل بلّغتُ؟ اللهم فاشهدْ!** وقال في مناسبةٍ أُخرى: **بلِّغوا عني ولو آية، وربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع**. فالدين دعوةٌ وبلاغٌ، وعلى المسلمين فهمُ ذلك والقيامُ به وعليه؛ أي الاستمرار في التبليغ، بمعنى أنّ الدعوةَ لا تنتهي؛ بل تظلُّ في حالة تحقُّق في صفوفهم من جهة، وفي العالم الأَوسع من جهةٍ ثانية؛ لأنَّ المبلَّغين قد يكونون أَوعى من السامعين، وهذا معنى جعل القرآن المسلمين «شهداء» على الناس، وتقريره أنّ خيريتهم مرتبطةٌ بالدعوة إلى المعروف: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

ثانياً: التجربة التاريخية الإسلامية والتعدّدية

ما اختفت التعددية الدينية من سائر الديار التي انتشر فيها الإسلام منذ زمن أبي بكر الصديق، وحتى انقضاء الدولة العثمانية عام 1924؛ فقد وجد المسلمون ـ فاتحين وتجاراً ودُعاةً ـ مسيحيين ويهوداً في الديار التي دخلوها في القرون الثلاثة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ. وبحسب المصادر التاريخية فإنّ المسيحيين ظلوا أكثريةً في العدد فيما بين الشام والعراق ومصر وإسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادي. وعندما فتح العثمانيون البلقان والقسطنطينية ونواحي من أوروبا الشرقية كانت الأكثرية مسيحية، وظلّت كذلك حتى جلائهم عنها. وعندما فرّ اليهود من إسبانيا مع المسلمين آثروا اللجوء إلى أقطار الدولة العثمانية (القرن السادس عشر)؛ لأنهم كانوا يخشون الملاحقة في أوروبا الغربية والوسطى وروسيا. فلهذه الناحية ما أُكره أحدٌ على مغادرة دينه واعتناق الإسلام لا في زمن الخلافة، ولا في زمن السلطنات. ووجد المسلمون في إيران وآسيا

الوسطى أدياناً أُخرى غير كتابية مثل الزرادشتيين (= المجوس) والبوذيين (سمّاهم المسلمون: السُمَنية). وعندما فتحوا الهند وجدوا الديانات الهندوسية المختلفة. وفي كل هذه الحالات، جرى الاعتراف بهم بوصفهم أهل ذمّةٍ يتمتعون بحقوقٍ أقلّ بعض الشيء من حقوق اليهود والمسيحيين. وهكذا فإنّ التعددية الدينية ما جرى الاعتراف بها في العصور الوسطى إلّا في الإمبراطوريات الإسلامية.

لكنْ في الأزمنة الحديثة، بل وفي الأقطار البيزنطية من قبل، جرى التشهير بالإسلام دائماً بوصفه دينَ عنفٍ وإكراه، ولا يقبل الآخَر الديني! والواقع أنّ مسألة الدعوة غير مسألة الإمبراطورية. فالإمبراطوريات الضخمة التي قامت في ديار الإسلام اتسعت لتعددية الشعوب والأديان منذ البداية، لكنّ «التمييز» بالمقاييس الحديثة طبعاً ظلَّ حاضراً في كل مكان. وما كان ذلك بسبب مسألة الجزية فقط؛ بل وفي القدر الذي كان مسموحاً به لأهل البلاد الأصليين في المشاركة السياسية، وليس في الحريات الدينية، والحريات الاجتماعية والاقتصادية.

الإمبراطوريات الضخمة التي قامت في ديار الإسلام اتسعت لتعددية الشعوب والأديان منذ البداية، لكنّ «التمييز» بالمقاييس الحديثة طبعاً ظلَّ حاضراً في كل مكان.

والمسلمون ـ مثل الرومان ـ كانوا مغرمين بالتنظيم الدقيق، والتقنين لكل شيء، وبخاصةٍ في العصر العثماني. وهكذا نشأت أدبياتٌ فقهيةٌ هائلةٌ لمسألتي الحرب والسلم، ودار الإسلام ودار الحرب. وفي الداخل الإسلامي ظهر نظامٌ فقهيٌّ ضخمٌ لتنظيم علاقات المسلمين بـ«أهل الذمة». فالمجتمع فئاتٌ ولكل فئةٍ التنظيم الفقهي الذي تخضع له. وهو تنظيمٌ قائمٌ على التمييز بين المسلمين وغيرهم. وبالطبع فإنّ هذا التمييز كان قائماً بشكلٍ أوضح وأقسى في أوروبا العصور الوسطى وعلى مشارف الأزمنة الحديثة. وما اقتصر الاضطهاد على اليهود، بل نال التمييز والإرهاق من كلّ الفرق المسيحية التي لا تحبها الكنيسة الكاثوليكية؛ وهذا فضلاً عن الانقسام

التمييزي الكاثوليكي/الأرثوذكسي، ولاحقاً الكاثوليكي/البروتستانتي. وقد نُسيت الآن تلك التمييزات؛ لأنه منذ معاهدة وستفاليا (1648) ساد بالتدريج نظامٌ للفصل بين الدين والدولة، والاعتراف بالحريات الدينية. وعندما ظهرت «الدولة القومية» في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كانت أقطارٌ أوروبية وغير أوروبية لا تزال محتلةً من العثمانيين، فظهرت مشكلتان بدلاً من مشكلة واحدة: المشكلة الدينية، والمشكلة القومية (التي تفاقمت في البلقان العثماني وفي اليونان).

وقد كان من سوء حظ «دار الإسلام» أنّ أنظمتها ما تطورت تطوراً طبيعياً بسبب صيرورة أوروبا الإمبراطورية ثم أوروبا القومية نظاماً للعالم، وهو نظامٌ قام على الاستعمار في مشارق العالم المسكون ومغاربه، ومن ضمن مسارحه الصين والعالم الإسلامي بما في ذلك آسيا الوسطى والقوقاز. وقد استولى واجتثّ فجأةً تلك الحضارات الكلاسيكية، واصطنع بديلاً لها رغم المقاومة. ولا يزال المؤرّخون يتمدحون بالتجربة الأندلسية للعيش المشترك بين الأديان والثقافات، ويتمدحون بنظام المِلَل العثماني. لكنّ أحكام المؤرخين غير أحكام السياسيين والاستراتيجيين. فمع استيلاء الاستعمار ظهرت في العالم الإسلامي المحتلّ ثلاث مشكلات مرةً واحدة: مشكلة النعي على القروسطية الإسلامية القائمة على الدين، ومشكلة الأقليات القومية التي تشكو من التمييز وتريد الاستقلال، ومشكلة أو ضرورة أو فرض إقامة دول وأنظمة في العالم الإسلامي على مثال الدولة/الأُمة في الغرب الأوروبي. وفي كلّ هذه المشكلات التي أثارها الاستعمار الغربي كان الإسلام حاضراً، تارةً بوصفه رأس حربةٍ في مكافحة الاستعمار (= الجهاد)، وطوراً باعتباره أيديولوجيا أو دوغما معادية للحداثة والتحديث، وأخيراً - ومع ظهور «الصحوة الإسلامية» - باعتبار أنّ الدين يشكّل تحدياً للنموذج الغربي ويطمح لاجتراح نظامٍ جديد تحت اسم: الدولة الإسلامية، وهو خليطٌ من مختارات وانتقائيات التقليد، والأُصوليات التي اصطنعتْها الحداثة.

ثالثاً: الإسلام والتعدّدية الدينية في الزمن الحاضر

ما كان من المتوقَّع أن يواجه الفكر الإسلامي مشكلةً مع التعددية الدينية بالذات. فمجتمعاته تعدديةٌ منذ القديم، وقد تأسس الوعي بالتعددية على القرآن الكريم الذي يصف التعدد الديني والعِرقي والاجتماعي ويشترع له. ولئن كانت التعددية في التجربة التاريخية قد واجهت بعض القصور بسبب ظروف الإمبراطورية وأمجاد الإسلام الهائلة؛ فإنّ أصلَها (رغم التمييز) ظلَّ موجوداً وواضحاً. فحتى في زمن أبي الحسن العامري 4هـ/10م (صاحب: الإعلام بمناقب الإسلام) هناك اعترافٌ بستة أديانٍ، يؤْثر العامري الإسلام من بينها لانفراده بفضائل ذكرها، لكنه يعود فيؤكّد أنّ الأديان الخمسة الأُخرى لها مشروعية البقاء والسلام والحرية. وعندما ذكر الشاطبي «المصالح الإنسانية الضرورية» بحسب استقرائه للقرآن، وحصرها في خمس، أضاف: «وقد قيل: إنها مراعاةٌ في كلّ مِلّة». ولذلك عندما ازدهرت التجربتان الأندلسية والعثمانية قلّ التمييز، وصارت الأديان والثقافات مقبولةً وشبه متكافئة على حدٍ سواء إلى أنْ أُلغي كل تمييز بين الأديان، وأُقرت المواطنة في تنظيمات الدولة العثمانية عام 1857م.

> **ما كان من المتوقَّع أن يواجه الفكر الإسلامي مشكلةً مع التعددية الدينية بالذات، فمجتمعاته تعدديةٌ منذ القديم، وقد تأسس الوعي بالتعددية على القرآن الكريم الذي يصف التعدد الديني والعِرقي والاجتماعي ويشترع له.**

وما كان من المنتظر أيضاً أن يواجه الإسلام بتأويلاته الإصلاحية الجديدة مشكلةً مع التعددية في مجتمعاته وفي العالم؛ لأنّ الدول الوطنية على النموذج الأوروبي قامت في سائر أرجاء العالم الإسلامي منذ حوالى قرن. وهي تقول بالمواطنة والتعددية الدينية والثقافية وأحياناً السياسية، وتنتمي إلى نظام العالم، ولا تبدو في معظم تصرفاتها متصادمةً مع الدين أو مع متطلبات الحداثة.

وما توقّع كثيرون منا أيضاً أن تظهر للإسلام مشكلةٌ مع التعددية الدينية؛ لأنّ علماء الدين الجديين، ورجالات الكنيسة وعلماء الاجتماع في

الغرب الحديث والمعاصر، وصلوا - بعد لأْيٍ - لمقولة «الديانات العالمية»، والتي تعني اعترافاً بالإسلام من ضمن عشرات الديانات الأُخرى، وعدّه الأكثر تأثيراً على أتباعه (= مليار ونصف المليار اليوم)، وأنّ له مستقبلاً لا شكّ في جديته وتطلعاته.

لكنّ المرارة ظهرت بوضوح في النتاجات الفكرية والدينية للعرب والمسلمين منذ أكثر من سبعة عقود. فقد قامت دولةٌ للمسلمين بباكستان المنفصلة عن الهند بأقاليمها ذات الأكثرية الإسلامية، وكان ذلك نذيراً بأنّ المسلمين لا يستطيعون العيش مع غيرهم كأقليةٍ في دولةٍ واحدة! وازداد الأمر سوءًا بقيام دولة دينية لليهود على أرض فلسطين، ما استطاع العرب ولا المسلمون الحيلولة دونها؛ لأنّ العالم كلَّه كان معها. ولذلك ظهر أولَ ما ظهر لدى العرب ثم المسلمين - قوميين وإسلاميين - الاعتراض على ميثاق الأُمَم المتحدة (1945)، وعلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948) تارةً لأنّ العالم يكيل بمكيالين، فيطبَّقُ الميثاق والإعلان بطرائق خارج الديار الإسلامية، وبطرائق أُخرى معها وبداخلها. بَيْدَ أنّ الأكثر دلالةً لجوءُ عدة مفكرين إسلاميين (حزبيين وغير حزبيين) إلى إنكار أصل الميثاق والإعلان بوصفه يقوم على مقولة أو مبدأ «الحق الطبيعي» لبني البشر؛ بينما الحقوق في الإسلام تكليفيةٌ. ففي الحق الطبيعي تأليهٌ للإنسان على حساب الوحدانية! وما اقتصر الأمر على هذا الإنكار؛ بل سادت مقولة «الانفصال والمفاصلة» عن العالم ومعه، عندما بدأت تظهر منذ الخمسينات كتب حقوق الإنسان في الإسلام، ثم الإعلانات الإسلامية لحقوق الإنسان التي تُفَضَّلُ بالضرورة على الإعلان العالمي!

كيف يتعلّق هذا التطور بمسألة التعددية الدينية والثقافية؟

لقد كانت هناك منظومةٌ تقليديةٌ من القيم الدينية، صنعتها التجربة التاريخية للأمة في حواريةٍ بين النصّ والجماعة والتاريخ أو الواقع المتغير. وكانت هذه المنظومة ذات القسمين أو المحورين (فِقه الدين، وفِقه العيش) تعمل بنشاطٍ وبآلياتٍ جرى التعارُف عليها عبر القرون. ثم

تباطأت وتكأكأت لسوء الحظ على مشارف اجتياح أوروبا للعالم. وقد حاول فقهاء الإسلام ومفكروه وسياسيوه واستراتيجيوه ـ على تفاوتٍ في النجاح والإنجاز ـ التلاؤم مع المتغيرات، والعمل على صَوغ نظامٍ جديدٍ للعيش يظلُّ على تناغُم واتّساقٍ مع فقه الدين المتجدد؛ بيد أنّ هذه المحاولات الحثيثة (سميت إصلاحية) وبعد قرابة القرن أو القرن ونصف ما حقّقت غير إنجازاتٍ متواضعةٍ في الملاءمة، بسبب طغيان نظام العالم الأوروبي، فانضرب نظامُ العيش أو اخترقته الحداثة، ومن ضمنه النظام التقليدي للتعددية أو التنوع. فقد تغيّرت أفكار وتوجهات الفئات المشاركة للمسلمين في عيشهم، وهذا فضلاً عن ظهور فئات نخبوية عربية وإسلامية ما عادت تقبل التقليد وآلياته.

لقد حاول فقهاء الإسلام ومفكروه وسياسيوه واستراتيجيوه ـ على تفاوتٍ في النجاح والإنجاز ـ التلاؤم مع المتغيرات، والعمل على صَوغ نظامٍ جديدٍ للعيش يظلُّ على تناغُم واتّساقٍ مع فقه الدين المتجدد.

إنّ المُصابين بهذا الضرب لنظام العيش من الفئات المهمَّشة لجأوا ـ إلى جانب النضال ضد «عولمة» نظام العيش ـ إلى العمل على فِقهٍ آخَرَ للدين. ولذلك ظهر لأول وهلةٍ أنّ هؤلاء هم ضد التقليد العقدي والفقهي، بوصفه قد عجز عن الحماية من التغريب والاستتباع. فقاتلوا على الأرض، أو في المجتمعات أو في العمل الفكري على مكافحة التقليد المتخاذل من جهة، والعودة إلى النص مباشرةً (وليس إلى التجربة التاريخية، تجربة المذاهب الفقهية) لاصطناع فِقهٍ جديدٍ طهوري ومتشدد للدين. وقد كان من ضمن ما جرى رفضه التعددية داخل المجتمعات الإسلامية، والتعددية في علائق الإسلام بالديانات الأُخرى بداخل مجتمعاته وفي الخارج. قالوا: إنه كما هو الدين واحد؛ فإنّ المجتمعات ينبغي أن تكون اندماجيةً وواحدةً ولو بالقوة. وهكذا انتشرت سَمْيتاتٌ دينيةٌ قويةٌ في زمن الصحوة في اللباس والهيئة وأداء العبادات والترتيبات الاجتماعية ذات الخلفية الدينية في كل المناسبات. وبالطبع فإنّ ذلك التشدُّدَ السمْتي المتوهَّم، عُدّ عودةً للأصول الثابتة، بعيداً من التغريب ومن التقليد.

إنّ هذا الرفض المبدئي ـ إذا صحَّ التعبير ـ والذي امتد فيما بين الأربعينات والسبعينات من القرن الماضي كان أخطر ما فيه ثلاثة أمور: ضرب فِقه الدين بعد أن **ضُرب فِقه العيش، والتوجُّه عقائدياً** إلى «المُفاصلة مع العالم»، **واجتراح نظام جديد** للدين وفقهه بتحويله إلى نظامٍ كاملٍ للدولة والمجتمع، وربط إمكانيات «استعادة الشرعية» الدينية والسياسية به بالاستدراج وبالعنف.

بعد مرحلة الإحيائيات المتشددة هذه ـ والتي ركّزت على بناء نظام عقائدي عنيف ـ جاءت بعد سبعينات القرن الماضي مرحلةٌ جديدةٌ إذا صحَّ التعبير، باصطناع فقهٍ جديدٍ يتلاءَمُ مع هذا النظام العقائدي المغلَق. وقد أسهمتْ في المرحلة الجديدة الإحيائيات الجديدة التي لجأت لآلياتٍ جديدةٍ تفصيلية لتطبيق الرؤية العقائدية، بالعودة **للموروث المرفوض** من قبل **بطرائق انتقائية**. فبعد أن كان الموروث كله في التفسير القرآني، وفي فقه المذاهب مستنكَراً، لجأ هؤلاء إلى استفراد الآراء الشاذّة التي تتفقُ والرؤيةَ السالفةَ الذكر. في البدء ـ أي في المرحلة الإحيائية العقَدية ـ ما وجدوا غير ابن تيمية وابن القيّم وابن كثير، ممن يستحقون الاستشهاد بهم. أمّا في المرحلة الحالية؛ فإنّ العقائديين الجدد استخدموا كلَّ ما يرونه مفيداً لنظامهم الجديد سواء في العقيدة أو في التفسير أو في الفِقه. لقد شعروا بأنهم صاروا يمتلكون الموروثَ كلَّه، ويمكنهم استخدامه بحسب أهوائهم، ويجدون من يصدّقهم من الجَهَلَة والغُفَّل والمستنفَرين. فإذا كان جمهور الفقهاء يرون أنّ الجهاد دفاعيٌّ، وله وظيفة فقط في حالة العدوان الخارجي؛ فإنّ الإمام الشافعيَّ يمكن اللجوءُ إليه؛ لأنه يقول: إنّ القتال ممكنٌ لمجرد الكفر، حتى لو كان أولئك «الكفار» لا يُعادون المسلمين ولا يعتدون عليهم. وإذا كان الفقهاءُ في معظمهم يقولون: إنّ الذنب لا يُخرجُ من الإيمان، وإنّ الإيمانَ بعد الإقرار شأنٌ بين العبد وربِّه؛ فليبحثوا عن فقيهٍ قديم يقول: إنّ الذنب مكفّر، وإنّ الردة حاصلةٌ لأَوهَن الأسباب. إنه «فِقه المفاصلة» ليس مع الخارج والعالم فقط؛ بل ومع فئاتٍ واسعةٍ بداخل المجتمعات المسلمة.

أ ـ عقيدة الولاء والبراء:

يحتج لها المتشددون الجدد بمثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]. وبمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 51]. وبمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ...﴾ [المائدة: 57]. وبمثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: 81]. وبمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 72] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 73]. وفي عقيدة البراء، من مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 3].. إلخ.

في البدء ـ أي في المرحلة الإحيائية العقَدية ـ ما وجدوا غير ابن تيمية وابن القيّم وابن كثير، ممن يستحقون الاستشهاد بهم، أمّا في المرحلة الحالية؛ فإنّ العقائديين الجدد استخدموا كلَّ ما يرونه مفيداً لنظامهم الجديد سواء في العقيدة أو في التفسير أو في الفِقه.

عقيدة الولاء والبراء ذكرها القرآن على وجه الخصوص في سورتي المائدة والتوبة. وقد سادت في الخطاب مع مشركي مكة إبّان اشتداد الصراع. ثم صارت مدعاةً للتنابُز والتكفير بين الفرق الإسلامية، من طريق الاتهام بالتشبه بالمشركين والكفار، أو من طريق موالاتهم أو موالاة أهل الكتاب. والمذاهب الباقية لا تُنكرها؛ لكنها غير عاملة إلّا ضمناً للتمييز والمقايسة. إذ اتسع مفهوم الإيمان بحسب القرآن والسُّنَّة بحيث صار هو التصديق والإقرار، أو الاعتقاد بالجنان والقول باللسان والعمل بالأركان. بَيْدَ أنّ الإخلال في العمل غير مكفِّر، وليس من حق أحدٍ الحكم على المقصِّر أو المُخِلّ بالكفر، وأمره إلى الله. وبسبب التشديد الكبير على تجنب التكفير أو الاتهام بذلك، ذهب بعض العلماء إلى أنّ آيات البراءة بحسب أسباب النزول قاصرةٌ على أهل مكة قبل الفتح، والتهديدات لمشركي العرب خاصة

بهم، فهي بمثابة المنسوخة. وهي إن تكن ساريةً فليس داخل الجماعة المسلمة؛ لأنها تولِّد التنابُز والتقاطع وسوء الظن، ويستحيل معها أن يقوم مجتمعٌ متضامنٌ تسوده الثقة. وفي القرآن الآيةُ التي تحذّر من الولاء للمشركين وأهل الكتاب والكفار. والمفهوم أنّ ذلك في العقائد أو في التحزب لهم بما يضرُّ بمصالح المسلمين لكنْ حتى في هذه الحالة؛ فإنّ الإسلام يظل دين دعوةٍ بالحُسنى، فكيف يمكن القيام بالدعوة ما دام البراءُ حاصلاً؟! فالبراءة انعزالٌ وانكماشٌ، أو تبرير لهجوم قتالي. والأمران غير واردَين، إذا كان المرادُ إبقاء المجال مفتوحاً لعلاقات تعارف أو علاقات تجاوُب وبلاغ.

إنّ داء التكفير المنتشر ضمن المجتمعات الإسلامية بذرائع شتى هدفُهُ ضربُ التعددية والتنوع الممكن ضمن الأُمة بحججٍ مختلفة؛ مثل التطهر من رجس الشِرْك، ورجْس الغرب، ورجْس المعصية. وهو يُسقط الثقة والإحساس بالانتماء إلى جماعةٍ واحدةٍ متضامنة كالجسد الواحد كما قال رسولُ الله ﷺ . وكما سبق القول؛ فإنّ الاختلاف كان حاصلاً بين الفِرَق على مفهوم الإيمان وعلاقته بالعمل، لكنه ظهر في ظل تجربة الجماعة، والإجماع على توسيع مفهوم الإيمان والولاء، وصار التبرؤ ـ إنْ حصل ـ تمنياً ورجاءً ودعاءً وليس أكثر من ذلك. ولذا فإنّ إعادةَ إحيائه وتفعيله من جانب المتشددين فيه خطلٌ كبيرٌ يوصل إلى الهلاك والإهلاك. والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: 29].

ثم إنّ التعامل مع المسيحيين تحت بنود الكفر والشِرك والبراءة ـ بحجة أنهم نقضوا عهد الذمة، أو أنهم غير المسيحيين في عهد الراشدين وما بعد، أو أنهم مكفَّرون لتحريف عقائدهم ـ كلُّ ذلك لا يضر بالتعددية التاريخية والقائمة فقط؛ بل يجعل من المستحيل على المسلمين العيش في العالم، ما دامت العلاقات مع العالم رهن الاتهام بالكفر والجاهلية المعاصرة.

إنّ السوادَ الأعظَم من المسلمين غير داخلين في هذه القسمة أو هذين الفسطاطين بين الإيمان والكفر؛ لكننا رغم ذلك محتاجون لفقهٍ آخر في الدين والعيش، لا يزال العمل عليه غير كافٍ.

ب ـ شهر سلاح النسخ على القرآن ومقاتلة العالَم:

يحتج المتشددون بآية السيف، وهي في أصحّ الأقوال: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 5]. كما يحتجون بمثل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: 36]. ويحتجون بمثل قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: 29].

إنَّ داء التكفير المنتشر ضمن المجتمعات الإسلامية بذرائع شتى هدفُهُ ضربُ التعددية والتنوع الممكن ضمن الأمة بحججٍ مختلفة؛ مثل التطهر من رجس الشِرْك، ورجْس الغرب، ورجْس المعصية.

يُعْمِل المتشددون هذه الآيات وأمثالها فيذهبون إلى ضرورة مقاتلة العالَم، رغم الاحتراز في عدة آياتٍ بـ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾. أمّا عشراتُ الآيات الداعية للمسالمة والمعاملة بالحسنى من مثل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: 208]؛ فيذهبون إلى أنها منسوخة. فآية السيف أو آياته نسخت كلَّ آيات السلم، وجعلت من الجهاد أو القتال الطريقة الوحيدة للتعامُل مع غير المسلمين. وهم يستشهدون على ذلك بالشافعي الذي يجيز القتال بعلّة الكفر، ويستشهدون في مسألة النسخ بعشرات المؤلّفين في الناسخ والمنسوخ، والذين يصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى مائتين وخمسين وأكثر! بينما يذهب فقهاء المفسرين إلى أنّ الآيات المنسوخة لا تزيد على ثلاث أو ست. وفي كل الأحوال؛ فإنّ الإسلامَ دينُ دعوةٍ، وقد قررت الآيةُ المحكمة التي ذكرناها سابقاً (= الممتحنة: 7ـ9) أنه لا قتال إلّا دفاعاً وفي حالتين: القتال في الدين، والقتال للإخراج من الديار. وفيما عدا ذلك فدخولٌ في السلم، ومعاملةٌ بالبر والقسط. وكما كان هناك فقهاء يقولون بداري الإسلام والكفر ولا شيء غير، فهناك فقهاء كُثُرٌ يرون العالم كلَّه داراً واحدةً فيها أهل إجابةٍ وأهل دعوة.

ولذلك فإنّ النضال لا يقتصر اليومَ على مكافحة العنف والإرهاب، وهو ضروري؛ بل يتعدى ذلك للدفاع عن الدين، وعن اعترافه بالعالم، واعتراف العالم به. وفي الأزمات كما هو معروفٌ يعود المرءُ إلى الثوابت والأصول المستقرة، وهي أنّ الإسلامَ دينُ دعوةٍ بالحسنى (كما نصَّ الكتاب)، ونحن لا نريد أن نُخيفَ العالَم، ولا أن نخافَ منه. وإذا كانت مجتمعاتنا متنوعة أو تعددية، فكيف نريد أن يكونَ العالم كلُّه على شاكلة المتمردين منا، وهي شاكلةٌ غير سليمة؛ لأنّ معظم المسلمين ضدها. وإذا كنا نواجه مشكلةً مع «الآخر» القريب، أي في ديارنا؛ فكيف نريد من العالم أن ينصف المقيمين منا في دياره أو ديارهم؟ فمن بين المسلمين البالغ عددهم ملياراً وستمائة مليون، هناك حوالى الثلث منهم يقيمون في ديارٍ وبلدانٍ غالبياتها من غير المسلمين! لقد قال الله سبحانه في مثل هذه الحالة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ...﴾.